الحياة
AL HAYAT
تجريبي

أعمال حامد ندا تخاطب السمع كما البصر

السبت، ٤ أبريل/ نيسان ٢٠١٥ (٠١:٠٠ - بتوقيت غرينتش)
النسخة: الورقية – دولي

القاهرة - ياسر سلطان
آخر تحديث: السبت، ٤ أبريل/ نيسان ٢٠١٥ (٠١:٠٠ - بتوقيت غرينتش)

لم يكن الفنان المصري الراحل حامد ندا صاحب نهج فني متفرد بين أقرانه فحسب، بل كان معلماً وأستاذاً لأجيال لاحقة من التشكيليين المصريين ممن تأثروا بأسلوبه وطريقته في بناء العمل الفني، وحتى اليوم تعد تجربته من أكثر التجارب الفنية إلهاماً، يميزها خيال صاحبها المنفلت وتوظيفه للعناصر والمفردات الشعبية في نسق يحمل بصماته الخاصة في الموائمة بين الموروث والممارسات المعاصرة.

وقد اسضافت قاعة إبداع للفنون في ضاحية الزمالك في القاهرة أخيراً مجموعة كبيرة من أعمال الفنان حامد ندا، من بينها لوحات ملونة وعدد كبير من رسومه التحضيرية (اسكتشات) وجانباً من متعلقاته الشخصية ضمت أوراقاً وكتابات بخط اليد وصوراً فوتوغرافية، إضافة إلى نموذج من تجربته في التصميم الدعائي لأحد الأفلام السينمائية (بوستر)، إلى جانب عدد من العناصر الأخرى التي كان يستلهم أشكالها وتكررت في أعماله. ضم المعرض كذلك آخر لوحة رسمها الفنان الراحل، وهي لوحة كبيرة تحمل تخطيطاً مبدئياً للعمل بالأقلام الملونة. والأعمال في جملتها هي آخر ما تبقى من مقتنيات أسرته.

يلفت هذا التنظيم الأرشيفي لمقتنيات الفنان حامد ندا انتباهنا إلى افتقار متاحفنا الفنية إلى مثل هذا العرض المتكامل لتجربة الفنان، فكثير من هذه الأوراق والمتعلقات الشخصية سيكون مآلها الضياع مع مرور الوقت وهي تعد كنزاً ثميناً للدارسين في مجال الفنون، إذ تتيح الاطلاع من قرب على ملامح التجربة الذاتية للفنان، فكثير من هذه الأوراق يكشف وجهة نظر الفنان حامد ندا وآراءه في الكثير من الأمور المتعلقة بتجربته، كما أن تعليقاته الشخصية على عدد من النواحي الحياتية والثقافية التي تضمنتها تلك الأوراق من شأنها أن تضيء جوانب ملتبسة في هذه التجربة. في حين لا تقدم متاحفنا في الغالب لروادها من المتذوقين والدارسين سوى خدمة المشاهدة البصرية أو «الفرجة» على الأعمال، غافلة الكثير من جوانب العرض المتحفي المتكامل، بخاصة مع رواد الإبداع من أمثال حامد ندا وغيره.

درس حامد ندا الفن في كلية الفنون الجميلة في القاهرة. وبرز اسمه على ساحة التشكيل المصري منذ ستينات القرن الماضي. وما زالت أعماله تحتل مكانها كأحد أهم الإبداعات الفنية في تاريخ التصوير

المصري والعربي. فقد كان حامد ندا فناناً من طراز خاص، تمتزج في أعماله الحقيقة بالأسطورة، ولا يخطئ المتأمل لأعماله - على حداثتها وتفردها - انتماء صاحبها ومصريته الخالصة.

وقد عاش الفنان حامد ندا مخلصاً لفنه، محتفياً بالحياة عبر أعماله المليئة بالبهجة، غير أن ملابسات رحيله حملت جانباً مأسوياً، ففي صيف عام 1990، انقطعت الكهرباء ذات ليلة عن القاهرة، وغرقت أحياء المحروسة لساعات في الظلام. في هذه الأثناء، كان حامد ندا يتحرك وسط هذا الظلام متحسساً طريقه على ضوء شمعة صغيرة داخل وكالة الغوري، ذلك المبنى العتيق الذي يضم العشرات من مراسم الفنانين. تحرك حامد ندا في تلك الليلة من محترفه ليستطلع الأمر بعد أن طال انقطاع التيار. لكنه قبل أن يصل إلى نهاية السلم، تعثرت قدماه، ليسقط على الأرض ويفارق الحياة بعد أيام قليلة من هذه الحادثة.

توقفت ريشة حامد ندا عن العمل وسط ظلام القاهرة. غير أن هذا الظلام الذي أحدثه انقطاع التيار الكهربائي، لم يكن وحده المخيم على أجواء المحروسة في تلك الليلة، فثمة ظلام آخر بدأ في إحكام قبضته على المشهد المصري قبل هذا التاريخ بسنوات، وبدأت خيوطه القاتمة تتسلل إلى كل مناحي الحياة، ليبدأ عصر من السطحية والانبطاح والميوعة، امتد لثلاثة عقود. وكأن القدر لم يشأ لهذا الفنان الكبير أن يكون شاهداً على هذا العصر، فيرحل الرجل قبل أن تستفحل الفوضى من حوله، وهو العاشق لمصر وتاريخها.

مات حامد ندا تاركاً المئات من اللوحات والرسومات، التي ليست مجرد مساحات ملونة تفنن صاحبها في صياغتها على مساحة اللوحة، هي رائحة وعطر، بخور وهمهمات وطبول زار، وأصوات حادة تصدح بأغنيات لا مثيل لها. الناس هنا يتحركون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، وما بين الحب والغواية، تتراقص أجساد الرجال والنساء. وعلى البُعد، ثمة أقمار وشموس يتناثر ضوؤها على مساحة اللوحة. هو يشيد ثم يهدم ما قام ببنائه ليعيد صوغه من جديد، يضيف ثم يحذف حتى تكتمل الملامح النهائية للعمل في نسق بنائي تميزت به أعماله. أعمال ندا ليست مجرد لوحات ورسومات، هي أشبه برائحة الوطن، تتشابك على سطحها تأثيرات العصور والأزمنة والثقافات، فهنا تختلط النقوش والزخارف العربية بقدسية الأيقونة، ويشتبك جلال الرسوم الفرعونية بعشوائية البناء وصخب الحارة وضجيجها.

وكما يداعب ندا الأبصار بخيالاته وشخوصه وأجوائه المحتدمة بالحركة والفوران، يداعب السمع أيضاً. فها هي نغمات الموسيقى تتسلل عبر مساحاته الملونة إلى القلوب، تستطيع أن تتبين أصواتها إذا ما أرهفت السمع قليلاً تاركاً العنان لحواسك، كي تتأمل هذا الكم من الآلات الموسيقية، التي تزدحم بها غالبية لوحات ورسومات ندا. فالموسيقى هي جزء لا يتجزأ من المشهد الأسطوري في أعمال هذا الفنان، يختلط فيها صوت البيانو وبكاء الناي، مع أنين الكمان وفرحة المزمار. هي أصوات تنثر البهجة وتوزعها على تلك الخيالات والشخوص المحلقة في فراغ اللوحة.